أحمد فارس الشدياق ورأيه في بَعْض المُستَشْرِقين وفي مشكلات الترجمة*

د. محمد سواعي

مُقدِّمة:

نَتناوَل في هذا البَحْث جُهودَ أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤؟ – ١٨٨٧) ورأيه في مشكلات الترجمة الذي عبَّر عنه في تعليقاته على ترجمات بعضِ المستشرقين الأوائِل لبعض المؤلَّفات العربية. ونَتَناول أيضاً عَلاقَتَه ببعض المستَشْرقين ورأيه في من عرفه منهم شخصيّاً في أثناءِ إقامتِه في بريطانيا وفرنسا، ممَّن قَرأَ تَرْجماتِهم ومُؤلَّفاتِهم، أو سَمِع عنهم من مَصادِر أُخرَى. ونعرض بالتفصيل عَلاقةَ الشدياق بالمستَشرِق الإنجليزي الدكتور صموئيل لي Samuel Lee (١٧٨٣–١٨٥٢)، الذي أوْكَلَت إليه الجَمعيَّةُ الإنكليزية المعروفةُ بِ «جمعية تَرْقِيَة المعارِف المسيحيَّة» Church Missionary Society مَهَمَّة تصحيح نَقْل «الكتاب المقدَّس» إلى اللغة العربية. وجديرٌ أنْ نذكرَ أنَّ هذا المستَشْرِقَ عارض ترجمة الشدياق، في أثناء عمله معه، بالأصْل الذي كان يُترجِم منه[1]. وقد بنى الشدياق موقفه من قدرات بعض المستشرقين اللغوية وكفايتهم في العربية على خبرته التي اكتسبها من هذه العلاقة مع الدكتور (لي) والعمل الوطيد مع بعض المستشرقين الآخرين.

لابُدَّ للباحثِ أو القارئ الجادّ حين يطالع ترجمةً ما مِنْ طَرْح بعض الأسئلة –كما فَعَلَ الشدياق – من مثل: ما الشُّروط اللازمةُ في المترجِم للنَّقْل من لغةٍ إلى أُخْرَى؟ وهل إتقانُ المهارات اللغوية شَرْطٌ كافٍ لإتقان الترجمة من

لغةٍ أجنبيةٍ؟ وهل معرفةُ ثقافةِ مُجتمعِ تلك اللغة ضَرورةٌ أساسيَّة؟ إذا كان الأمرُ كذلك، فكيف يكتسِب المتَرجِم هذَيْن المجالَيْن من المعرفة؟ ولابدّ، قبل الإجابة عن هذه الأسئلةِ من وُجهَة نَظَر الشدياق، من ذِكْر الملاحظاتِ التالية:

أوَّلاً: إنَّ قراءتَنا وُجْهَةَ نَظَر الشدياق هذه تَعْتَمِد اعتماداً كُلّياً على الفِكَر التي أوْرَدَها حَوْل القضايا اللغوية المتَّصِلة بالعربية، وعلى رأيه في المستشرقين الإنجليز أو الفرنسيين الذين ذكَرَهم في كتابه «كشف المخبا عن فنون أوربا»[٢]. فقد أورد الشدياق في هذا الكتاب إشاراتٍ قصيرةً عن بعض هؤلاء المستشرقين كانت لاذعة في كثير من الأحيان.

ثانياً: إنَّ عمَلَ الشدياق مُترْجِماً كان ضِمْن حَرَكةٍ ثقافية عربية أخذت تَنْشَط في النَّقْل من اللغات الأوروبية، ولاسيّما الفرنسية والإنجليزية، إلى اللغة العربية، في كُلٍّ من مصر وبلاد الشام في النِّصْف الأول من القرن التاسع عشر.

ففضلاً عن ترجمة العلوم الغربية في مُؤسَّسات محمد علي في مصر، نَلْمَس أيضاً النشاطَ في الترجمات الدينية على أيدي مُؤسَّسات التبشير الغربية ومُعاضَدة بعض المساعدين العرب، وكذلك في نَقْل المؤَلَّفات الأدبية الأوَّليَّة وبخاصَّةٍ في مَجالَيْ المسْرَح والشِّعْر. فينبغي لنا، حتَّى نَفهم رأي الشدياق في الترجمة، أنْ نَعْرِضَ تاريخ الترجمة في هاتَيْن المنطقتَيْن من العالم العربي عرضاً سريعاً.

ثالثاً: رافقَ قيامَ هذه الحركةِ العربيةِ حركةٌ غربيّةٌ قامَ بها المستشرقون الأوائل من خريجي برامِج الدراسات الإسلامية في بعضِ جامعاتِ أوروبا، وبخاصَّةٍ جامعةِ لايْدِن في هولندة وبعضِ الجامعات الفرنسية والجامعات البريطانية. فقد تعاظم الاهتمام بالعربية فِعلاً في القرْن التاسعَ عشَر، أيْ مع بِداية الأطماع الاستعماريَّة والنَّشاطات التبشيريّة في البلاد العربية.وقد تزامَن

هذا الاهتمام مع ظُهور ترجماتٍ من العربية إلى الفرنسية والإنجليزية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى. ولهذا نُقَدِّم عَرْضاً موجَزاً للدراسات الإسلامية في أوروبا وخاصَّةً في بريطانيا وفرنسا في ذلك الحين، حتى نتعرَّف على مستوى الإعدادِ اللغوي لهؤلاء المستشرِقين المترجِمين، وكان هذا المستوى أهم العوامل التي دفعت الشدياق إلى ما قاله فيهم، وما قاله، في كتابه المذكور سابقاً، عن حال تدريس العربية في الجامعات الغربية وبخاصَّةٍ الجامعات الإنجليزية، والمكانة المهمَّشة التي احتلتها هذه اللغةُ في البرامج الأكاديميّة.

جُهود المترجمين العرب في مصر وبلاد الشام:

لعَلَّنا لا نُجانِبُ الصَّوابَ إذا قُلنا إنَّ القِيامَ بعَمَل الترجمة والاهتمامَ بها في النِّصْف الأوَّل من القرن التاسعَ عشرَ كان نتيجةَ اهتمامَيْن مُختلفَيْن في مصر وبلاد الشام. ففي مصر، كان الدافِعُ وَراءَ هذا النَّشاط الجَمّ في بداية القَرنْ ترجمةَ العلوم الغربية للُّغة العربية مِن أجْل بناء دولةٍ حديثةٍ وفق ما كان يَرْتَئِي محمَّد علي ويُخَطِّط. ومن المعروف أن المؤَسَّسات الحديثة التي أنشأها حَسْب الأنظمةِ الأوروبيّة آنذاك، وبخاصّة النِّظام الفرنسي، قد تطلبت موظفين مؤهلين لإدارة تلك المؤسسات، من مثل المعاهد العلمية المختلفة، وإدارة الجيش، والمطبعة وغير ذلك. ولهذا أوفد محمد علي كثيرين من أبناء البلاد في بعثاتٍ عِلميَّة إلى المؤَسَّسات الأوروبية ليَعُبُّوا العلومَ الحديثةَ من مَناهلها وليتدرّبوا في المدارس، والمعاهد، والمصانع، وليكتسبوا الخِبراتِ التي كانت مؤسَّساتُه بحاجةٍ إليها. وتُعدَّ البِعثاتُ العِلميّةُ المصريَّة إلى أُوروبّا مِن أَهمِّ الخُطوات التي دَفَعَت مصر بخاصّةٍ، والشرقَ العربيَّ بعامّةٍ، نَحْوَ النهضة الجديدة. ويُمكِن للمَرْء أنْ يتصوَّرَ الوضْعَ اللغويَ الشَّائِكَ الذي وَجَدَ هؤلاء المبعوثون أنفسَهم فيه لَدَى

عودتِهم إلى مصر والالتحاقِ بوظائِفهم، وعَمَلِهم في مُختَلِف المؤَسَّسات، ولاسيما تلك التي استَدْعَت تعليمَ العلوم الأوروبيّة الحديثة باللغة العربية.

ومن ناحيةٍ أُخرى كان لإقدام محمد علي على فَتْح مدرسة الطبِّ في مستشفى «أبو زعبل» في القاهرة عام ١٨٢٧م لتعليم الطبّ أو العلوم المساندة له، على أيدي أساتذةٍ استُقدموا من أوروبا كبيرُ الأثرَ في تَنمِيَة حَرَكة الترجمة. فقد كان هؤلاء الأساتذةُ يعرفون الفرنسيةَ ولا يُجيدون العربية. ومن جِهةٍ أُخرَى، لم يكن الطلابُ على مَعرفةٍ باللغة الفرنسية، لغة الأساتذة. ويُمكننا أنْ نُقَدِّرَ الصُّعوباتِ في الاتّصال بَيْن العالِم والمتَعَلِّم في مثل هذه الحال. وخُروجاً من هذا المأزَقِ، استقَرَّ رأْيُ كلوت بك Clot Bey، رئيسِ مدرسة الطِّب، أَنْ يكونَ تعليمُ الطبِّ بالعربية على يَدِ مُترجمين ضَليعين traducteurs érudits، عارفين بلُغَة الطلاب والأساتذة[٣]. وكان كثير من هؤلاء المترجمين، في بداية الأمْر، من المهاجِرين الشّوام، فكانوا ينقلون الدروسَ من اللغة الفرنسية، لغةِ المعلِّمين العِلميّة، إلى اللغة العربية، لغة الطلابِ. ويُورِدُ هِيْورْثْ– دَنْ Heyworth-Dunne أَنَّ كْلُوت بيك اعتَرَفَ بأن المترجمين الملِمِّين بترجَمَة المادّة العلميّة كانوا غير موجودين في البداية[٤]. وقد أُسست «مدرسة الترجمة» على يدي محمد علي أوائل عام ١٨٣٥، نظراً للحاجة الماسَّة لمثل هؤلاء المترجمين، وريْثما يتَخَرَّج مُترجِمون من أبناء البلاد قادِرون على نَقْل العلوم إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصَّة من الفرنسية، للعَمَل في دوائر الدولة العديدة. وقد سُمِّيَت هذه المدرسةُ فيما بَعْدُ باسْم «مدرسة الألْسُن»، ورَأَسَها عام ١٨٣٧ رفاعة رافع الطهطاوي، الذي كان قد مارَسَ الترجمة في أثناء دراسته في باريس، ومارسها أيضاً بِنَقْل موضوعات عِلميَّة وتاريخية من اللغة الفرنسية إلى اللُّغة العربية حين عودته من بِعثته في فرنسا عام ١٨٣١، وفي أثناء الوظائف

المختلفة التي شَغَلَها.

أما في بلاد الشام، فكان الدافِعُ وراءَ التَّوَجُّه إلى الترجمة إمّا دينيّاً مُتَمَثِّلاً في ترجمات «الكتاب المقدّس» والكُتُب والمنشورات الدينيّة العديدة الأخرى، أو اقتصاديّاً للاستفادة من العَلاقات التجارية مع الغرب، التي أخذت بالتوَّسع إثرَ إنشاء البُيوتات التجارية الغربية في حَلَب وطرابلس وبيروت وغَيرِها من المدُن الشامِيَّةِ. وقد نذكر عاملاً آخَر ألا وهو دافِعُ العَمَل في القُنْصليّات الأجنبية في مُختلف مُدُن الولايات العربية الخاضعة للحكم العُثماني. ويَجِب أنْ نذكرَ أنَّ تعلُّم اللغات الأجنبية واتخاذ الترجمة مهنةً في بلاد الشام في القرن التاسع عشر لم يَكُن شيئاً جديداً طارئاً. فَمُنذ عصورٍ بعيدة، عرَفَت هذه المنطقةُ الحاجة إلى المترجمين للعَمَل في البيوتات التجارية، أو في الأديرة وإرشاد الحُجّاج المسيحيين الغربيين في أثناء زياراتهم للبلاد المقدَّسة. وقد قامَت الأديرةُ والمدارسُ التبشيريّة بمَهَمَّة تعليمِ لغاتٍ أجنبيةٍ مختلفةٍ لأبناء هذه المنطقة. ففي حين تَوَلَّت بعضُ الأديرة، وبخاصة في لبنان تعليمَ اللغات الشرقية كالسريانية والعِبرية، قامَت المدارسُ التبشيريةُ، التي تأسَّست وتوَسَّعَت في القرن التاسعَ عشرَ، بنصيب هامٍّ من تعليم أبناء الطوائف المسيحية اللغات الغربية، ولاسيّما اللغتَيْن الإيطالية واللاتينية. وفيما بعد أضافَت هذه المدارسُ والأديرةُ الإنجليزيةَ والفرنسيةَ إلى برامجها في تعليم اللغات الأجنبية. وقدّم تعلُّم هذه اللغات مَيادين عَمَلٍ للخرّيجين، سَواءٌ في التعليم، أو في الترجمة، أو العَمَل في المكاتب القُنْصُلية أو التِّجاريَّة. ونورد، على سبيل المثال، من أسماء هؤلاء المترجِمين بطرس البستاني (١٨١٩– ١٨٨٣)، وابنه سليم (١٨٤٨– ١٨٨٤)، وحبيب اليازجي (١٨٣٣– ١٨٧٠)، ورُشَيْد الدَّحْداح (١٨١٣– ١٨٨٩)، ورِزْق الله حسّون (١٨٢٥؟ – ١٨٨٠)، وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤؟– ١٨٨٧)، الذي نَخُصُّه بهذه

الدِّراسة.

الدِّراسات الإسلامِيَّة والعربية في أوربة في القَرْن التاسِع عشر:

من المعروف أنَّ الاهتمامَ باللغة العربية والإسلام يعود إلى مراحل الاحتكاك الأولى بين العرب والغرب بعد فَتْح الأندلس في القرْن الثامن للميلاد. وعلى الرَّغم من الاتّصال المباشِر إبّان الحُروب الصليبيّة، غير أنَّ الصليبيّين أهملوا، كما يبدو – حسب قول آرْثَر آربري A. Arberry– فُرَصَ تعلُّم لغة أعدائهم الفرسان مع أنَّهم تعلّموا الكثيرَ من مهارات الفُروسِيَّة من العرب(٥). ولكنَّ حقبة زمنيةً طويلةً مَرَّت قَبْل أنْ تُصبحَ اللغةُ العربية والدراساتُ الإسلامية موضوعات تُدَرَّس بذاتها في الجامعات الأوروبية، متمتعة باستقلالها الأكاديمي، كغيرها من المباحث التي حواها المنهاج الجامعيّ. ولما كانت دراسةُ اللغة العربية مُعظَم الأحيان مُلحَقةً بأقسام الدراسات العِبريَّة والتوراتيّة في جامعاتٍ كثيرةٍ في أوروبة، فإنَّها بَقِيَت معزولةً في زاوية ضَيِّقة من المؤسَّسة العِلميَّة، وبَعيدَةً من التلاقح الفكري الناشِط في البرامج الأكاديمية الرئيسة في الجامعات.

فَفي بريطانيا، لم يكن حالُ الدراسات الإسلامية والعربية على المستَوى المتَوَقعْ، فقد ذكر آربري(٦) أنَّه باتَ ثابتاً أنَّ أوَّلَ عالِمٍ باللغة العربية كان المدرِّسَ الخاصَّ للملك هنري الثاني وهو أدِلارْد من مدينة باث Adelard of Bath، الذي لَمَع نجْمُه في القرن الثاني عشر (حوالي ١١٢٥ للميلاد). وكان أدلارد هذا قد ارتحل في الأندلس وسورية، وترْجَمَ عَدَداً من النُّصوص العربية إلى اللغة اللاتينية. ويذكر أربري أيضاً أنَّ من الذين اهتمّوا بتعلُّم العربية والعلوم الإسلامية في الأندلس في القرن الثاني عشر دانيل من مدينة مورلي Daniel of Morley، لينقلها إلى بلاده. وفي القرن الثالث عشر برز ميخائيل سكوتس

Michael Scotus، عالِم الفَلَك والكيمياء ومُترجِم مُؤلَّفات ارسطوطاليس من العربية. فمن الواضح أن العربية لم تكن تُدَرَّس بذاتها بل كانت وسيلةً للتعرُّف على عُلوم اليونان القديمة التي حفِظَت العربيةُ الكثيرَ منها(٧).

أما الاهتمام بتدريس العربية فقد بَدَأَ في القرن السابع عشر، وذلك إثرَ التوَسُّع التجاري في مناطق الشرق، الذي صاحَبَه أيضاً اهتمامٌ بالتبشير إلى المسيحية في المجتَمعات العربية الذي استَدْعَى مَعرِفةَ العربية. فبَيْنَما تَبَرَّعَ تاجِرُ الأقمشة والملابس في لندن السير توماس آدامزSir Thomas Adams بتأسيسِ أوَّلِ كُرسيٍّ لدراسة العربية بجامعة كِمبردج عام ١٦٣٢ للميلاد، رعى المِطران لاود Archbisohp Laud تأسيسَ أوَّل كرسيٍّ لتدريس العربية بجامعة أكسفورد عامَ ١٦٣٦، وربما كان هذا بِدافِع المنافسة التقليدية بين هاتَيْن الجامعتَيْن(٨).

لقد بدأ الاهتمام بدراسة العربية في انجلترة منذ أوائل القرن السابع عشر، وتعاقَبت أجيالٍ من الأساتذة على كرسي العربية في جامعة كمبردج على سبيل المثال، ومع هذا فإن الاهتمام لم يُصبِحْ واضِحاً في هذه الجامعة إلا في نهاية القرن التاسع عشر، حين عُيِّن وليم رايت William Wright (١٨٣٠– ١٨٨٩) أستاذاً للعربية عام ١٨٧٠، بعد أنْ أكملَ دراستَه في لايدن(٩). وكذلك الحال في جامعة أكسفورد حيث عُيِّن د. س. مرغوليوث .D S. Margoliouth (١٨٥٨– ١٩٤٠) في عام ١٨٨٩ أستاذَ كرسي اللغة العربية الذي أسَّسه بجامعة أكسفورد رئيس الأساقفة لاود عام ١٦٣٦. ومع أنَّ اسمَ مرغوليوث اقترَنَ بالدِّراسات العربية واشتَهَرَ بإنتاجه الغزير في هذا الميدان، غير أنَّ اهتماماتِه شَمَلَت الدراساتِ السامِيَّةَ بوجه عامٍّ، فلقد مَهَرَ علومَ اللغة السريانية والعِبرية والحبشيَّة(١٠). ومرغوليوث هذا كانَ قد علَّم نفسَه

بنفسِه اللغةَ العربية والإسلام، ولم يكن تلميذاً لأيٍّ من الأساتذة في الحَلَقَة الضيِّقة من العلماء المتخصِّصين في الدراسات الإسلامية.

أمّا في فرنسا وهولندة، فَمِن المعروف أنَّ كوليج دي فرانس Collège de France في مدينة باريس وجامعة لايْدِن بمدينة لايدن في هولندة كانتا المؤَسَّستَيْن العِلميَّتَيْن اللتيْن اشتَهَرَتا بالاهتمام بالدِّراسات العربية والإسلامية وأصبحتا المؤَسَّستَيْن العِلميَّتَيْن اللتين يَرتادُهُما طُلابُ هذه الدِّراسات من البِقاع الأوروبية المختلفة. ففي كوليج دي فرانس كانَ جان جاك كوسان دي برسفال الأب (١٧٥٩– ١٨٣٥) Jean- Jacques Caussin de Perceval père قد عُيِّنَ أستاذاً للعربية[١١] عام ١٧٨٤. وقد ازداد الاهتمامُ بالدراسات الإسلامية ودراسة اللغة العربية في فرنسا، وبخاصَّةٍ بعد تأسيس «مدرسة اللغات الشرقية الحيّة Ecole spéciale des langues orientales vivantes» في ٣٠ مارس (آذار) عام ١٧٩٥، فأُنْشِئَ فيها كرسيٌّ لدراسة العربية الفصحى وكرسيٌّ آخَر لتعليم اللهجات، فضلاً عن تعليم اللغة التركية والتَّتارية والفارسية والملاوية. وقد جاء هذا كله مع نموّ المصالح التجارية، والأطماع السياسية في البلاد العربية بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشرٍ وازدياد النفوذ الأوروبي في هذه البلاد. ومن المعروف أن سِلْفِسْتر دي ساسي (١٧٥٧/ ١٧٥٨؟– ١٨٣٨) Silvestre de Sacy عيِّن أستاذاً لتدريس اللغة العربية في «مدرسة اللغات الشرقية الحيَّة» في عام ١٧٩٦، وبتعيينه بَدَأت الحقبة الأولى من ازدهار العربية في هذه المدرسة الجديدة[١٢]. ومن المعروف أن دي ساسي دَرَسَ العربية والسريانيّة والكلدانية والعبرية. ولكنَّ العربيةَ هي اللغة التي فتحَت بابَ الدراسات الشرقية له. وله مُؤَلَّفاتٌ تعليميّةٌ في النَّحْو العربي تَتَلْمَذَ عليها كُلُّ مُتخَصِّصٍ في الدراسات العربية في أوروبا في القرن التاسع عشر.

وليس من قبيل المبالَغة القول إنَّه ليس من طالِبٍ في المعاهد العليا الفرنسية والإسبانية والنرويجية والسويدية والدنماركية خاصةً لم يتربّع أمام قدَمَيْ دي ساسي ويستفد من الكُتُب التعليمية التي كان هذا المستشرق قد أعدَّها[١٣]. ويذْكُر الشدياق أنَّ دي ساسي كان أبْرَعَ من عَرَف العربية والفارسية. ولا نَعْرِف كيف يُؤَكِّد الشدياق مثلَ هذه المعلومة. فلعلَّه عَرَف من اتّصالاته مع المستشرقين العديدين أنَّ دي ساسي شَغَلَ كرسيّ اللغة الفارسية في كوليج دي فرانس[١٤] عام ١٨٠٦.

ومع كُل هذه التطوُّرات في دراسة العربية والإسلام، وشُهرة بعض الأساتذة في بعض الجامعات الأوربية والتحاق طلابٍ لدراسة هذه الموضوعات واهتمامِهم بها، فإنَّ دراساتِ الإسلام والعربية بقِيَت محدودةً ومقصورة على عَدَدٍ قليلٍ من العُلَماء. وكانت لايدن وباريس مركزَيْ جَذْبٍ للطلاب الأوروبيين المهتمّين الذين وَفَدوا إلى هاتين المدينتَيْن طلباً للعلوم الإسلامية ولدراسة اللغة العربية.

الشدياق والترجمة:

بَدأَ الشدياق دراستَه الأوَّلِيّة في بَواكير سنواته في قَرْية الحَدَث حيث وُلِد وَنَشَأَ. ثم أُرسِل بعد ذلك إلى مدرسة «عين ورقة» الشهيرة، حيث كانت تُدَرَّس اللغات الشرقية كالسريانية والعِبريَّة. وبعد تَرْكِهِ المدرسة، واصَلَ تعليمَه في بَيْت والدِهِ الذي حَوَى «كتباً عديدة في فنون مختلفة...»[١٥]. وبعد أنْ توَقَّفَ عن الدراسة بسبَبَ ظُروفٍ عائليةٍ، عَمِلَ في نَسْخ الكُتُب ومارَسَ مِهنةَ التعليم الخاصّ. ثم غادَرَ لبنان في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٢٦ إلى الإسكندرية[١٦] في طريقِهِ للعَيْش في القاهرة وإعداده للعَمَل مع «جمعية تَرَقّي

المعارف المسيحية» التي ذكرناها سابِقاً. وفي القاهرة، واظب الشدياق على تعميق معرفته باللغة العربية بالمواظبة على الدراسة في الأزهر[١٧]. ثمَّ عمِلَ في تحرير جريدة «الوقائع المصرية». وأرسلته «جمعية ترقي المعارف المسيحية» بعد ذلك إلى مالطة، حيْثُ بَدَأَ دراسةَ اللغة الإنجليزية لكي يتمكن من تعليم اللغة العربية للأجانب والقيام بتَصحيح الترجمات الدينيّة التي كانت جمعيات التبشير تقوم بها لنشر الكتُب الدينيَّة باللغة العربية. ومارَسَ الترجمةَ أيضاً مع الطائفة التبشيرية الأمريكية الصغيرة في مالطة عام ١٨٢٨، ومارسها بعد ذلك مع هيئات التبشير الإنجليزية، ثمَّ مع الطائفة التبشيرية المحليّة في القاهرة إثْرَ عودته إلى مصر[١٨]، إمّا في نهاية عام ١٨٢٨ أو أوائِل عام ١٨٢٩.

وفي عام ١٨٣٤ غادَرَ الشدياق القاهرة في طريقِه إلى مالطة ليبْدأ مَرَّةً ثانيةً عَمَلَه مع «جَمعيّة ترقّي المعارف المسيحية» مُتَرجماً ومُحَرِّراً، ومُصَحِّحاً لُغوِيّاً للمطبوعات العربية. ويُخبِرُنا الشدياق أنَّه قام بتعليم اللغة العربية في «... مدرسةٍ جامعة يعلم فيها الفنون واللغات...» في أثناءَ إقامته هناك[١٩]. وفي عام ١٨٤٨ وُجِّهَت له دعوةٌ لزيارة إنجلترة ليقومَ بترجمة «الكتاب المقَدَّس» إلى العربية، بالتعاون مع المسْتَشرِق الإنجليزي[٢٠] الدكتور صَمُوئيل لي (١٧٨٣–١٨٥٢م). وقد أتاحَت له هذه الإقامةُ القصيرةُ في كِمْبرِدج، والأماكنِ الأُخرى في انجلترة، واسكتلندة، وفرنسا فُرصةَ التعرُّف على المجتمعات الإنجليزية، والفرنسية، وعلى لُغات هذه البلاد أيضاً، وعلى الحَرَكات الأَدبيَّة، والفِكريَّة هناك. كما شحذ نشاطُه في الترجمة وعلاقاته الواسعة في هذه المجتمعات وبالعاملين في شُؤون الفِكر والتعليم والترجمة طاقاتِه اللُغوِيةَ والفِكْريّةَ، وهو ما أكسبه سُمعةً فائقةً، فاستدعاه السُّلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩–١٨٦١) ليعمَلَ مُتَرجماً ومُصَحِّحاً لغوِيّاً في مكاتب «الباب العالي» في الدَّولة

العُثمانية التي استمَرَّ في خِدمتها، فأقامَ في (الأستانة) إبان حُكم السُّلطان عبد العزيز (١٨٦١– ١٨٧٦). وعاش فيها أيضاً عِقْداً من حُكْم السُّلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦– ١٩٠٩).

وقد تعرَّف الشدياق في غضون إقامته في بريطانيا وفرنسا، وزيارته للمُؤسَّسات التعليميَّة فيها، على وَضْعَ تعليم اللغة العربية في جامعاتها، وكَوَّن آراءَه في كفاية المستشرقين اللغوية وقدراتهم على الترجمة. ولاحَظَ أنَّ اللغاتِ الساميَّةَ مُرَتَّبَةٌ ترتيباً هَرَمِيّاً في الجامعات الغربية، لا من حيث أهمِيَّةُ اللغة في العُلوم اللغوية وحسب، بل من حيث رواتِبُ مُدرِّسي هذه اللغات أيضاً، فعلوم اللغة العربية يُنظَر إليها – كما يقول الشدياق بالنص – بأنّها «...سبب يتوصل به إلى النتف من غيرها كالعبرانية والسريانية...» إذ إنَّ هاتَيْن اللغتَيْن أهَمُّ وأكثرُ نفْعاً. زد على ذلك، أنَّ دَخْلَ مُدرِّس اللغة العِبرِيَّة في كِمبردج كان «ألف ليرة في السنة» في حين أن «دخل مدرس العربية سبعون ليرة فقط...»[٢١].

ولعلَّ الشدياق قد عَرَفَ مستشرقين غربيين كثيرين شخصِيّاً أو عَرَف عنهم وعن مُؤَلَّفاتهم من مَصادرَ أُخرى[٢٢]. ومن الآراء التي بَثَّها في صَفْحات كتابه عنهم يُمكنُنا تقسيمُ هؤلاء المستشرقين إلى فِئَتَيْن: فِئَة أولى تحظى بإعجابه، فَيُغدِق عليها عباراتٍ مُنمَّقَةً تعبيراً عن إعجابٍ شديدٍ. ومن المستَشرقين الإنجليز الذين عُنُوا بالعربية والذين كان الشدياق مُعجبَاً بهم نَذكُر دكطر جون نيكلسن John Nicholson، [الدكتور جون نيكلسون]، الذي تعلَّم العربية، ولم يكن سَمِعها أبداً من أبنائها، وكان يَطرَبُ كثيراً حين يُنشدِه الشدياق بعضَ الأشعار. وسَكَن هذا المستشرق في مدينة بنريث Penrith في شمال إنجلترة حيْث حَلَّ عليه الشدياق ضيفاً في هذه المدينة فأظهَرَ له من

الإكرام ما حظي بإعجابَ الشدياق[٢٣]. وكذلك يذكر الشدياق مستر وليمس Williams [وليمز], المدرِّس في كِمبردج، ومستر برسطون Preston [برستون]، الذي تَرْجَمَ خمساً وعشرين مَقامةً من «مقامات الحريري» إلى اللُّغة الإنجليزية. ويقول الشدياق إنَّ برسطون عاش في «الديار الشامية واستصحَبَ بعض أهاليها...». وعلى ما يقول أربري، فقد شَغَل كُلٌّ من هنري غْرِفِنِ وِلْيَمْز Henry Griffin Williams من كليّة عمّانوئيل Emmanuel وثيودور برسْتون Theodore Preston من كليّة تْرِنِتِي Trinity كُرْسِيَّيْ دراسات العربية في جامعة كِمبردج عام ١٨٥٤، وكانا حينئذ شاغرين. وكانت سُمعةُ تدريس العربية في هذه الجامعة، في ذلك الحين، قد انحدَرَت كثيراً، ولم ينجح أيٌّ منهما في وَقْف تدهور سُمعة تدريس العربية في هذه الجامعة[٢٤].

ويذكرُ الشدياق مستر جون برطون John Breton [برتون]، الذي قرأ عليه جُزءاً من المقامات، أي «مقامات الحريري». ويُضيف الشدياق أنَّ السيِّد برتون كانَ يتعلَّم العِبريّة على يَد يهودي في كِمبردج[٢٥]. ومن الذين حازوا إعجابَ الشدياق وثناءَه مستر صال George Sale (١٦٩٧– ١٧٣٦) مُترجِم القرآن (١٧٣٤). ويُشكِّك الشدياق بصَحَّة قول فولتير بأنَّ صال مَكَثَ بين العرب سنواتٍ عديدةً تقربُ من خمسةٍ وعشرين عاماً، وهذا ما ساعدَه على تعلّم العربية عنهم وسهَّل عليه ترجمةَ القُرآن ترجمةً جيِّدةً مازالت تحظى بالثناء حتّى اليوم. ويُؤكِّد الشدياق اعتماداً على مُقدِّمةِ ترجمة صال الطويلة أنَّ المترجِمَ لم «يُخالِط العرب»[٢٦]. ومما يزيد في صَحَّة استنتاج الشدياق، أنَّ صال ماتَ عام ١٧٣٦ عن عُمرٍ يقِلُّ عن الأربعين عاماً[٢٧]. ولكن هذا التشكيك في مُخالَطَة صال للعرب، لا يُنْقِصُ من قَدْرِهِ وعَمَلِه المتَمَيِّزين في الترجمة.

ويذكر الشدياق أيضاً مستر لان Edward William Lane [إدوارد

وليم لين] (١٨٠١- ١٨٧٦) مُترجم حكايات «ألف ليلة وليلة»، الذي عاش، على ما يَذْكر الشدياق، سنواتٍ عديدةً في مصر خالط فيها عُلماءَها وأُدباءَها. والمعروفُ أنَّ لين عاش في مصر ما يَقْرُب من اثنَيْ عشرة سنةً على ثلاث مراحل ما بين ١٨٢٥ و١٨٤٩ كَتَبَ في أثنائها كتابَه المشهورَ في العادات والتقاليد في مصر، وكتاباً في وَصْف مصر، وجمَعَ أيضاً المادَّة اللازِمةَ للمُعجَم الشهير «مدّ القاموس»[٢٨].

ويذكر الشدياق من العلماء الفرنسيين الذين عُنوا بالعربية البارون دي ساسي، الذي جاء ذِكرُه سابقاً، ويَصِفُه بأنَّه أبْرَعُ مَنْ في «بلاد الإفرنج كلها» في اللغتَيْن العربية والفارسية[٢٩]. ويُورِد أيضاً اسمَ موسيو دوكان Dugat [دوغا]، الذي تَرجَم في عام ١٨٥١ قصيدةَ الشدياق في مَدْح أحمد باشا والي تونس أثناء زيارة الوالي لفرنسا[٣٠]، والكونت دكرانجA. Desgranges [ديغرانج] رئيس تراجم باب الإمبراطور الذي نَصَحَ الشدياق ألا يُتْرْجِمَ قصيدتَه في مَدْح الإمبراطور لويس نابليون لِصُعوبة ترجمة هذه القصيدة[٣١]. ولعلَّ دكرانج هو الذي ترجَمَ من الفرنسية للعربية كتابَ نقولا بن يوسف الترك[٣٢] «تاريخ الإمبراطور نابليون من سنة وفاة الملك لويس السادس عشر إلى موت نابليون سنة ١٨٢١» الذي طُبِع في باريس سنة ١٨٣٩.

أمّا الفِئةُ الثانية من المترجمين فتَلقَى من الشدياق نَقْداً جارِحاً. وسَنُورِدُ هنا أسماءَ بعضِ الذين سلَّطَ عليهم نَقدَه الحادّ. فمِن هؤلاء يذكرُ ريشردصون [كذا] [ريتشاردْسِن ?Richardson] مُؤلِّفَ كتابٍ في اللغة يُقارِن فيه اللغةَ الإنجليزيةَ باللغَتَيْن العربية والفارِسِيَّة. ويَرى الشدياق أنَّ ريشردصون هذا لا يَعْرِف مِنَ العربية نِصْفَ ما يعرفُه هو نفسُه من اللغة الإنجليزية، غامِزاً من قُدْرَة ريشردصون على القيام بالمقارنة بكفاية، أو بمقدرته على الترجمة من العربية. ويرى

الشدياق أنَّ ترجماتِ ريشردصون كانت ملأى بأخطاءٍ لُغويةٍ يُمكِن تَصنيفُها في ثلاثة أنواع:

(أولاً) تراكيب لغوية مَغلوطة مثل تركيب الإضافة الذي أورَدَ الشدياق منه بعضَ الأمثلةِ التاليةِ: «ملك كسرى»، و«رأس أمان»، و«قدح فضة»، و«الغالب عجم»، و«غالب عجم»[٣٣].

(ثانياً) التصحيف إذ صَحَّفَ ريشردصون «جلوتها» بِـ «جلدتها» في العبارة «ولا أزال كذلك حتى تتم جلوتها». وفي العبارة «حتى يقول جميع من حضر» كَتَبَ في الحاشية «حظر» بَدَلاً من «حضر» و«حضرة بمنزلة السمو في الانكليزية»[٣٤]. ولعلَّ نقْدَ الشدياق لتصحيف مُستَشرِقٍ تعلَّم العربية لغةً أجنبيةً ولا يعيش في وَسَطها اللغوي يبدو مُتَشَدِّداً، ولاسِيَّما أنَّ هذه الظاهرةَ شائعةُ الحدوث في الكتابات العربية. ويُخَصِّص الشدياق في «الجاسوس على القاموس» مَساحةً لإيراد أمثلةٍ على التَّصحيف من قُرّاء القرآن، والمحَدّثين، والكُتّاب والأئِمَّة الأعلام. وخَصَّصَ النَّقدَ الثالث والعشرين من «الجاسوس على القاموس» لـ «خطأ صاحب القاموس وتحريفه وتصحيفه...»[٣٥].

(ثالثاً) الترجمة الرديئة لعدم معرفة السِّياق الحضاري والثقافي للُّغة أو لتصوُّرٍ خاطئٍ لهذا السّياق. فمثلاً، ترْجَمَ ريشردصون «ولا أخلي روحي إلا في موضعها» بقوله «لا أعطي الحرية لنفسي أي لزوجتي إلا في حجرتها». ويُورِد الشدياق مثالاً آخَر من ترجمة منشورٍ ملكيٍ يحُضُّ على الجِهاد على النَّحو التالي: «ليس لعبّاد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة إلا بجهاد الكفار». ويتساءَل الشدياق إنْ كان المسلمون يَرَوْن أنَّ النبيَّ معبود[٣٦].

ويَعيب الشدياق على هذه الترجمات أن المترجِم يعطي لنفسه الحريَّةَ ليكتُبَ ما يَعِنُّ له، فكثيراً ما يَسبِكُ ترجمتَه في قالبِ لُغتِه دون مراعاةٍ لأفكار

المؤلِّف الأصليّة. ويذكر مثالاً على بعض المترجمين الذين يطلقون لأنفسهم العنان في نَقْل معاني اللغة الأصلية للغاتهم، فيرتكبون أخطاءً في فَهْم الأصْلِ، وينتهجون أساليب لا تنم عن إدراك السِّياق الحضاري لاستعمال المصطَلَح اللغوي. فلو قال أحَدُ السبَّابين لآخَر «يحرق دينه» – على حَدِّ قول الشدياق – فَرُبَّما لا يُدرِكُ المترجِمُ السِّياقَ الاجتماعيَ الحضاريَ للعبارة في مُجتَمَع السبّابين. ويَرَى أنَّ هذا السَّبَّ يعني أنَّ دينَ المسبوب «ساطع ملتهب» «... يحرق جميع ما عداه من الأديان أي يغلب عليها فهو الدين الحقيقي القاهر»[٣٧].

وينتَقِد الشدياق الجامعاتِ الغربيةَ، التي يُسمّيها «المدارس»، لأنها لا توظف «الغريب»، ولعلَّ المقصودَ بذلك أبناءُ اللغة، وإن كانت تسمح لهؤلاء بتعليم أشخاصٍ مُنفردين. ويَرَى الشدياق أنَّ مثلَ هذه الممارسات تَضُرُّ بتحصيل الطلاب اللغوي، فهم «لا يتعلّمون حقَّ التعليم». وينتقدِ أيضاً الأساتذةَ الذين يصِفُهم بـ «المستَبِدّين» بالنظام لأنهم لا يسمحون لغيرِهم بأنْ يُعلِّموا تعليماً يُوفونَه حَقَّه. ويُشير إلى مُشكلةٍ مُتَفَشِّيةٍ في الجامعات الفرنسية، حيْث يُفرَضُ على مُعَلِّم العربية أنْ يكونَ عالِماً باللغة اللاتينيّة. فإذا كان مُعلِّم العربية غيرَ عارفٍ اللغةَ على نحْوٍ جيِّدٍ فإنَّه يَزْعُم معرِفةَ اللاتينيَّة عِوَضاً عن معرفة العربية[٣٨].

الشدياق والدكتور صموئيل لي:

انتقلَ الشدياق من مالطة إلى إنجلترة، كما ذكَرْنا سابِقاً، ليعمَلَ قريباً من الدكتور صموئيل لي (١٧٨٣– ١٨٥٢)، أستاذ العربية بجامعة كِمبردج الذي اعتمدته «جمعيةُ ترقّي المعارِف المسيحية» ليُعارِضَ ترجمةَ الشدياق لِـ «الكتاب المقَدَّس» بالنَّص الأصليّ الذي كان يُترجِم منه[٣٩]. ذلك أنَّ أهمِّيَّةَ الدكتور لي

العلمِيَّة لدراسته اللاهوت، ومَركِزَه الهامّ في جامعة كِمبردج ومعرفته اللغة العربية، وتقديرَ هذه الجمعية لجهوده، كلُّ ذلك شَجَّع الشدياق على المجيء إلى بريطانيا ليكونَ بجِوار هذا المستَشْرِقِ المشهورِ في أثناء عملِه بمُراجعة ترجمة الشدياق لِـ «الكتاب المقَدَّس»[٤٠]. ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الشدياق لم يتمكَّن من مغادرة مالطة للالتحاق بصموئيل لي إلا بعد أن أخَذ إذْناً من حاكِم مالطة، وهذا يدُلُّ على أهمِّية عمل الشدياق مُترجِماً مع جمعيات التبشير الإنجليزية والأمريكية في مالطة.

وكان صموئيل لي في بِدايةِ حياتِه – على ما قال الشدياق – يتخذ النجارة حِرفَةً له. ولكنَّه أخَذَ يهتمُّ بالعلوم التَّوْراتِيَّة واللغات الشرقية بعد أنْ تجاوَزَ الثلاثين من عُمْرِه. ويذكرُ الشدياق أنَّ الدكتور لي كانَ يَتمتَّع بشُهرةٍ عظيمةٍ في إنجلترة لمعرفته اللغات الشرقية، وأنَّه لم يكُن يُحسِن التَكَلُّم باللغة [أي العربية] «ولو بجُملةٍ واحدةٍ»[٤١]، على أن هذا النَّقد الحادّ لم يمنع الشدياق من أن يُوفيه بعضَ حَقِّه، فيَقول إنَّه كان مُجِدّاً في عمله، لا يُصيبه مَلَلٌ، فكان يستطيع الجلوسَ إلى مكتَبِه أربعَ ساعاتٍ دون حراك.

وكان الدكتور لي – على ما رواه أربري – في أثناءَ تَدَرُّبِه على عَمَل النِّجارة، يقتطعُ جُزءاً من راتِبه اليسير ليَشتري به كُتُباً ليتعلَّمَ اللاتينية، واليونانية، والعِبرية، والكِلدانية، والسِّريانية، والسومرية والعربية، والفارسية، والهندوستانية، ويعطي دُروساً خاصَّة في الفارسية والهندوستانية. ونظراً لهذا التحصيل غير العادي أوْفَدَته «جمعيةُ ترَقّي المعارف المسيحية» للدراسة في كليّة كوينز Queen´s College [في جامعة كِمبردج] عام ١٨١٣، حيث حَصَلَ على درجة الدكتوراه في العلوم اللاهوتية عامَ ١٨٣٣، في حين كان يَشغَل كرسيَّ الدراسات العربية في الجامعة نفسها من العام ١٨١٩ إلى العام ١٨٣١. ثُمَّ انتقَلَ ليَشغَلَ كرسيَّ

دراسات اللغة العِبريَّة في عام ١٨٣١. والدكتور لي مَعروفٌ بتخصُّصِه في العِبرية أكثر من تَخَصُّصِه في ميادين أخرى، في رأي أربري[٤٢].

وعلى هذا يُمكننا أنْ نتَصَوَّرَ العلاقةَ بين لُغويٍّ أصيلٍ مُتَضَلِّعٍ من العربية، مُعْتَدٍّ بعِلمِه وبلُغَتِه، يَنْظِم الشّعرَ في المناسبات من مَدْحٍ أو هِجاءٍ، وذي باعٍ طويلٍ في السِّجالات اللغوية، وعالِمٍ غربي تَمَرَّسَ بالعربية في مُحيطٍ أجنبيٍ مُنعزِلٍ عن جَوّ اللغة الأدبي والحضاري يزعُم أنَّه يعرِفُ العربيةَ، ومن ثمَّ يستطيعُ، في اعتقادِهِ، أن ينظم الشِّعر بها. وذات مرّة، دارَ جدالٌ بين الاثنين في أثناء عملهما معاً تناولَ قضايا لغويةً عامّةً، وقضيّةَ نظْمِ الشِّعر العربي خاصَّةً. وكان الشدياق قد قرأَ أبياتاً نظمَها بالعربية أحَدُ المستشرقين النمساويين، فأخَذَ عليه أخطاءً كثيرةً من زِحافٍ ولَحْنٍ، وانتهى إلى نتيجة أنَّه يُشتَرَط في من يكتب الشِّعرَ أنْ يعرِفَ قواعِدَ النَّظم، وأنْ يأخذَ هذه القواعدَ عن العرب. ويشتَطُّ الشدياق في رأيه هذا إلى حَدّ القول إنَّ نَظْمَ الشِّعر في العربية يَصعُب على الإفرنج [كذا]. وكان الدكتور لي لا يتَّفِق مع الشدياق في هذا الرأي. وللبرهان على وُجْهة نَظره كان يضرِب مثالاً على قُدرته – وغيرِه من الإنجليز – على نَظْم الشِّعر باليونانية واللاتينية، مع أن مُخالطةَ أبناء هاتَيْن اللغتَيْن ليْسَت قائمَةً. أمّا الشدياق فيَرَى فَرْقاً بين ادّعاء المقدرة على نَظم الشِّعر في هاتيْن اللغتَيْن ونظْمِه في العربية، فاليونانيةَ واللاتينيّةَ أصْلُ الإنجليزية – على ما يعتقِد الشدياق – ويتعلَّمها الإنجليز صِغاراً، على عكس العربية، البعيدة الصِّلة بالإنجليزية، والتي لا يتعلّمها الإنجليز وهم صِغارٌ في مدارسهم. وأصَرَّ كلٌّ من الطرفَيْن على رأيِه. فراهَنَ الشدياق أنَّه سَيُقَدِّم كتُبَه هدِّيةً لأيّ أجنبيٍ يستطيع نَظْمَ بيْتَيْن من الشِّعر العربي على الوَجْه الصَّحيح البليغ. ويبدو أنَّ الدكتور لي قَبِلَ تَحدّي الشدياق. ففي اليوم التالي عَرَضَ ثلاثةَ أبياتٍ من نَظْمِه على الشدياق. ولكنَّ الشدياق

سارَعَ إلى بيان مَواطن الزِّحاف والخطأ في هذه الأبيات. وعلى ما قاله، ما كان من الدكتور لي إلا أن لاذ بالصَّمْت. وقال من بعد إنَّ العِلَّةَ تَكمُنُ في طبيعة اللغةِ العربية، فهي لغةٌ متكلَّفةٌ، فيها قواعدُ وضَوابِطُ كثيرةٌ على عكْس لغات أوروبا(٤٣).

واختلف الاثنان في أثناءَ عملِهما بمُراجعة الترجمة، حَوْل أُمورٍ لُغويَّةٍ عديدةٍ. فانتَقَدَ الشدياق الدكتورَ لي على استعمال عباراتٍ يَستنبِطُها بِنَفسِه مُنافياً بذلك الأساليب العربية بدَلاً من قُبول المصطَلَح العربي الرائج الاستعمال. مثال ذلك إصرارُ الدكتور لي على استعمال عِبارة «قال قائلاً» بَدَلاً مِن «تكلَّم قائلاً»، لرغْبَتِه في المحافظة على الأصْل الوارِد في التوراة؛ وأيضاً «قال لهم مثلاً» بدلاً من و«ضَرَب لهم مثلا». ويفسّر الشدياق، رُبَّما على سبيل التفكُّه، السَّبب في تَجَنُّب الدكتور لي قوْل «وضرَبَ لهم مثلاً» باعتقاده بأنَّ «ضَرَب» تعني بالضَّرورة إحداث الألم(٤٤).

وكان الدكتور لي يغيِّر بعض العبارات فيقع في أخطاء لُغوية. فمثلاً، في العبارة «وما أولئك بعابرين من هناك إلينا» لم تُعجِبْ الدكتور لي كلمةُ «عابرين» فبَدَّلها بِ «يعبرون» فجاءت العبارةُ على النَّحو التالي: «ما أولئك يعبرون من هناك إلينا» فاعتَبَرَها الشدياق غيرَ مقبولةٍ بالمقارنة مع العِبارة السابقة(٤٥).

وانتقَدَ الشدياق أيضاً تحاشي الدكتور لي السَّجْعَ إلى أقْصَى حُدود الإمكان على أساس وُجوب تَجَنُّب السَّجْع في كلام الله حسبما كان يعتَقِد. فمثلاً، رأى في العبارة «وكان هناك قطيع من الخنازير كبير» وعِبارة «خرجتم إليّ بعصى كلص» سَجْعاً يَجِب تجنُّبه في ترجمة «التوراة»(٤٦)، وكذلك تحاشيه الجُمَلَ المنتَهِيَةَ بالواو والنون أو الياء والنون، وذلك– حسب قول الشدياق– خَشيَة أنْ تُضاهِيَ هذه الجُمَل لغةَ «القرآن» التي كان يعتقِد أنَّه يعرفُها. فكان يستَبْدل بهذه

الجمل غيرها(٤٧).

وكان الدكتور لي يَتحاشى الوَقْف أيضاً، ظَنّاً منه أنَّ هذا الوقفَ شيبهٌ بوَقْف «القرآن». فمثلاً، رأى – على ما روى الشدياق – في الجملة «وأنتم على ذلك شهود» وَقْفاً يُشابِه وَقْفَ «القرآن» فاستبدل بها «وأنتم شهود على هذا»(٤٨).

ولعَلَّ تراكيبَ اللغة الإنجليزية حَدَت بهذا المستشْرِق للاختصار إذا ما شَعَرَ أنَّ في العِبارة حَشْواً. وكان هذا الميْلُ يتعارَضُ مع ما يَراه الشدياق الأسلوب الأفضل في العربية. فمثلاً، يذكر الشدياق أنَّ الدكتور لي رأى قوْلَ «وكان رجل اسمه فلان» أخْصَرَ من «وكان رجل يسمى فلان». وقد يَنْحو عكْسَ ذلك. فإذا قرَأ عبارةً بها ألفاظٌ كثيرةٌ لا داعي لها كان يَرَى في كثرَةِ الألفاظ هذه تقْوِيَةً للمعْنَى(٤٩).

وكان الدكتور لي يَلْجَأُ دوْماً للعِبريَّة واللغاتِ الأخرى لتوضيح نُقطةٍ يختلفان عليها، وكان هذا يُثير حفيظةَ الشدياق. ففي استفسارٍ عن الألِف في كلمة «قِفا» في مُعلَّقة امرئ القيس، طرَحَ الشدياق التفسيرَ المعهودَ في كُتُب التُّراث العربية على أنَّ هذه الألِفَ هي ألِفُ التَّثنِيَة كما يراها البعضُ، إذ يُخاطِب الشاعرُ صاحِبَيْن له، ويراها البعضُ الآخرُ أنَّها مقلوبةٌ من نون التوكيد. ولم يقْبَل الدكتور لي هذا التفسير لتعَسُّف هذا الرأي – على حدِّ زعْمِه – بَلْ رَأى أنّ الألِفَ مقلوبةٌ عن الهاء في العِبْرِيَّة، إذ تُلْحَق الهاء في هذه اللغة بِفِعْلَيْ الأمْرِ والنَّهْي لتَدُلَّ على الطلَب والتَّوَسُّل، على حَدَّ قول الدكتور لي(٥٠). ويسوقُ الشدياق أمثلةً أُخرى من المفردات العربية نَسَبَها لأصولٍ سامِيَّةٍ. ففي مثال «آمَن»، أرجَع المدَّةَ في هذا الفِعْل إلى الألِف في السِّريانية، كما أنّه أرجَعَ «يومنا» في قَوْل العرب «إلى يومنا هذا» إلى السُّريانية، كما في الكلمة السُّريانية «يومنانِ». وأرْجَع كذلك أصْلَ «الزِّناء» إلى العِبريَّة إذ يَعني الفِعْل «زنى» في هذه

اللغة معنى «باع»[٥١]. ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الشدياق كان قد تلقَّى بعض تعليمه في اللغتَيْن السُّريانية والعِبرية في مدرسة «عين وَرْقَة»، وأنَّه كان يعي العلاقات المشتركة بين اللغات السامِيَّة ولاسيّما على مُستَوَى المفردات. ولكنَّه لم يتَوَقَّف عند دراستها دراسةً مُقارَنَةً كما كان دأبُ الدكتور لي. ولعلَّ السبَبَ في ذلك هو التقليد المعجمي الذي كان يُركِّز على دراسة مُفرَدات اللغة العربية بمَعزِلٍ عن الدراسات المقارَنة ورَبْط العربية باللغات الشقيقة.

ولعله ينبغي أن نقول إنَّ مُشكلةَ التَّصحيف التي أشَرْنا إليها لم تكن مَحْصورةً في ترجمات الدكتور لي، فالشدياق نفسه يذكر أنّه لَدَى زيارته مكتبة جامعة أكسفورد أراه «شيخ العربية» –كما يُسمّيه الشدياق، دونَ ذِكْر اسمه – أوَّلَ كتابٍ وصَلَت يَدُه إليه. وكان هذا الكتابُ مكتوباً بالخطِّ الكوفي. وعندما فتَحَه كانت الكلمةُ الأولى في أوّل الصَّفحة لفظةَ «ألا» فقرأها «الا». وفسَّرَ «الشيخُ» الأكسفوردي هذه الكلمةَ على أنّها «الله»[٥٢].

ويُورِد طُرفَةً كان لها نتائجُ وخيمةٌ ومُضحِكةٌ في الوقت نفسه بِسَبَب تصحيفٍ لُغويٍ حَدَث في مُفردتَيْن في اللغة الإنجليزية في أثناء المراسلات بَيْن الهَيْئَة المشرِفَة على مَعْرِض لندن عام ١٨٥١ والجِهات الرَّسمية المسؤولة في مصر. وعرف الشدياق بهذا الخطأ في أثناء زيارته لجَناحِ مِصْر في هذا المعْرِض[٥٣] فقد كان البرنس البرت طَلَبَ من الدُّوَل المشارِكَة «أنْ يرسلوا من بدائع صنائع بلادهم» أشياءً للعَرْض. وترجَم أحدُهُم لفظةَ «صنائع» (أرتس) [arts] بِـ «أرض» (إرث) [earth] لتقارُب «صورة الخط» و«النطق» في هاتين الكلمتَيْن – على حدّ قول الشدياق. ولهذا السَّبب لم تُرسِلْ مصر إلا ما أنتجته الأرضُ من «القطاني وبعض أشياء أخرى لا طائل تحتها»[٥٤].

ويَرَى الشدياق أنَّه من الحُمْق بمكان أنْ يُترجِمَ إنسانٌ من لغةٍ إلى أُخرى

باستعمال الألفاظ والتراكيب نفسها في اللغتَيْن لأنَّه من المحال أنْ تَتَطابَقَ لغتان تماماً في التعبير. وإذا جوَّزت لغةٌ ما عبارةً مُعَيَّنةً فعلى المترجِم ألاّ يَتوَقَّع أنْ تستعملَ اللغةُ المنقولُ إليها العباراتِ والمفرداتِ نفسِها. ويَضْرِب مثلاً على ذلك من العِبريّة واليونانية، إذْ تُجوِّز الأولى العبارة «خرج الدخان من مناخر الله» وتُجوِّز الثانية «خرج الدخان من أحشاء الله» قِياساً على استعمال عبارات تَصِف الله مثل «وجه الله» و«عين الله» و«يد الله». ويستنكِرُ استعمالَ مثل تلك العبارات في العربية لأنها لا تليق في التعبير عن الله جلّ جلاله(٥٥).

خاتِمة:

لقد انشغَلَ الشدياق بالقضايا اللغوية رَدَحاً طويلاً من الزَّمَن، وقَضَى سنوات من عُمْرِه يَنْقُد وينتَقِد مُنْخَرِطاً في صِراعاتٍ مع علماءَ عَرَبٍ وغيرِ عَرَب، على نحو ما رأينا من آرائه التي أوْرَدناها هنا حَوْل بعض المستشرقين ومقدراتهم اللغوية وترجماتهم. وللتذكير فقط باهتمام الشدياق بالأمور اللغوية يَجِب ألاّ يغيبَ عن بالِ القارئ المعاركُ اللغويةُ التي نَشِبَت بين الشدياق واليازجي، والمحاورات المعجمِيَّة واللغوية بين الشدياق وبطرس البستاني.

طَرَحْنا في بداية هذا البحث بعضَ الأسئلة حَوْلَ الشُّروط اللازم توافُرُها في المترجِم الجيِّد، ومَدَى الكفاية اللغويةِ اللازمة للنَّقْل من لُغَةٍ إلى أُخرى، وضرورةِ مَعرفةِ ثقافةِ مُجتمَعِ اللغة المنقولِ منها وكيف يتأتىَ تحصيلُ مثْلِ هذه الثقافة. ومن قراءَتِنا لآراءِ الشدياق في المؤسّسات التعليميَّة في بريطانيا وفرنسا التي أدخلت العربيةَ مادَّةً دراسِيَّة فيها، وفي ظُروفِ تعليم العربية في هذه المؤسَّسات، وحالِ بعض المدرِّسين ومَقدراتِهم اللغوية كما خَبِرها الشدياق عن كَثَبٍ، أو عَرَفَ عنها من مَصادِر أُخرى، نَستطيعُ أنْ نَسْتَشِفَّ بعضَ آرائِه

التالية:

أوَّلاً: يستطيعُ العالِمُ اكتسابَ معرفةٍ في اللغة وفي بعضِ جوانبِ تُراثِها، ويستطيعُ أيضاً تعلُّمَ المفردات تعلُّماً قاموسياً، والإبداعَ في بعض الكتابات. ومع ذلك، يَبْقَى كثير من مثل هؤلاء العلماء غَيْرَ قادِرين على استيعاب المعاني الدقيقة للتعابير الحضارية والكثير من المصْطَلَحات اللغوية.

ثانياً: إنَّ العالِمَ الذي يدرُسُ اللغةَ في سِياقِها الثقافي، ويَعيشُ في وَسَطها الحضاري، ويأخذُ عُلومَها عن أبنائِها يكون أقدَرَ على نَقْل أفكار هذه اللغة الأجنبية من العالِم الذي يكتَسِبُ اللغةَ في بلاده ويُمارِس الترجمةَ بعيداً عن وَسَط اللغة وسياقها الحضاري. ونَستَشِفُّ أيضاً أنَّ الشدياق يُثمِّن العالِمَ الذي يَرْتَحِلُ إلى موْطِن اللغة ويُقيمُ فيه باحِثاً مُنَقِّباً عن دَقائق اللغة وغوامِضِها. ومثل هذه الأمة تهيئ للباحِث فُرَصَ التعاون مع المختَصّين باللغة والوصول إلى معرفتها معرفةً أفضل.

ثالثاً: على العالِم اكتسابُ معرفةٍ أوسعَ من الاكتفاء بالاطّلاع المعجَمي أو القاموسي والنَّحوي على لغةٍ ما. وعليه أنْ يتعامَلَ مع اللغة على أنَّها ليست شكلاً بنائياً خالياً من أيِّ مُحتوَىً ثقافي أو حضاري. وعليه أنْ يدرسَها لغةً حَيَّةً لها استعمالاتها الأدبية والحياتية.

رابعاً: تحتوي اللغةُ على مُصطلحاتٍ لُغويةٍ لا يُمكِن فَهمُها من المعاني الحرفِيَّة للكلمات التي تكوِّنها. لذا يَرَى الشدياق أنَّ الترجمةَ الحرفِيَّة تقود إلى أخطاءٍ فادِحةٍ.

يجِب ألا يغرُبَ عن البال أنَّ بعضَ آراء الشدياق الواردة هنا في بعض المستشرقين قد تكون مُتأثِّرةً بعَلاقتِه الشخصيَّة بهم وحُبِّهِ أوكُرْهِه لبعضهم. وقد تكون هذه الآراء مُتأثِّرةً أيضاً بالتَّجرُبة الحضارية أو الاجتماعية التي خَبِرَها في

أثناءَ إقامتهِ في بَعْضِ مُدُن فرنسا وبريطانيا ولقائه بعض العُلماء العاملين في حقل الدراسات العربية والإسلامية. ولعلَّنا، في نهاية المطاف، لا نُبالِغ إذا قُلنا إنّنا نَرَى في رأي الشدياق مُحاولَةً مُبَكِّرةً لنَقْد المنهَج الاستشراقي في دراسة المجتمعات العربية وتعامُل المستشرقين مع اللغة العربية.

والشدياق، على تصلّبه في القضايا اللغوية، نراه في لحظةٍ من لحظات صَفاء الذِّهْن والصِّدْق مع النَّفس يتخَلَّى – للحظات وجيزة – عن هَوَس النحويِّين وتعليلاتِهم واعتراضاتِهم وتجويزاتهم وترجيحاتِهم، ويُطالب بإعطاء العلوم التي عَرَفَ أهميَّتَها في الحياة اليومية في الغرب أولويَّةً كبيرةً، فَقد طالَبَ بإدراج هذه العلوم في قائمة «العلوم الإلهية»، على حَدِّ تعبيره. وقد حَدَث هذا التحوُّلُ حين زار مرَّةً «محل التلغراف» وشاهَدَ كيف تُنقَل الأخبار بسُرعةٍ مُذهلَةٍ، وكيف أنَّ حرَكةَ إبرةٍ طَرَقَت مِسمارَيْن وتحرَّكت ثانيةً «بأسرع من أن ينطق المتكلِّم بعشر كلمات» وإذا بخَبَرٍ يُبلَّغُ من «ويانة»[i] إلى لِفربول (في بريطانيا)، ويُستَلَم الرَّدّ إيذاناً بِوُصول هذا الخَبَر. ويُقارِنُ الشدياق مثلَ هذا الإنجاز العِلميّ و«...سِرّ الكيمياء الذي يتعلمه الإفرنج الآن...» بانشغال النحويين بتجويز ستة عشر وَجْهاً في الصِّفة المشَبَّهَة ومَنْع وَجْهَيْن واختلاف وَجهٍ واحِدٍ. ويَرَى أنْ يُوَجِّهَ اهتمامَ العرب إلى الاشتغال بالعُلوم الأكثرِ أهمِّيَّةً ونفْعاً من الانشغال بالتجويزات النحويَّة العديدة في مسألةٍ لُغَوِيَّة يراها سَبَباً في ضَياع العُمْر، فهو يقول بالنص: «...فإن وصول الخبر من قاعدة مملكة أوستريا[ii] إلى ليفربول في أقل من ثانية أنفع من تجويز عشرين وجهاً في مسألة واحدة...»[٥٦].

(i) فيّنا، عاصمة النمسا.

(ii) أوستريا هي النمسا.

ومع تَعَصُّب الشدياق الشديد للُّغة العربية فإننا نَستَشِفُّ من نقده للنحويّين وتشدُّدهم في بعض القضايا النحويّة — التي لا طائلَ منها في رأيه – دعوتَه للتساهُل في الاستثناءات اللغوية تيسيراً للمُتَعَلِّم ليُقْبِلَ على تعلُّم اللغة راغِباً فيها وبلا مُعاناة. ولعلَّ هذَيْن المَوْقِفَيْن المتناقِضَيْن للشدياق، المَوْقِف المتَشَدِّد تِجاه المستَشرقين الذين يَشْعُر بقُصُورِهم في اللغة العربية من ناحيةٍ، والمَوْقِف الداعي للتساهُل اللغوي من ناحيةٍ أُخرَى، يُشيران إلى نوْعٍ من التناقُض في تفكير عالِمٍ لُغوِيٍ تَتَنازَعَه أفكارٌ مُتناقِضَةٌ من مثل التَّشبُّث بالقديم والتقليدي من جِهةٍ، والشعور، من جهة أخرى، بأهميَّة مَظهرٍ حَضاريٍّ حديثٍ له أثَرٌ كبيرٌ في حياة العامَّة يتَخَطّى الاستثناءات اللغوية العديدة. أما تجربةُ الاتصال التلغرافي التي مَرَّ وَصفُها فتبين دعوتَه إلى اللحاقِ بالغرب والاهتمام بالعلوم اللازمة لنقل المجتمع العربي إلى المراحل المتقَدِّمة التي وَصَلَت إليها المجتمعاتُ الغربيةُ آنَئذٍ.

* * *

الهوامِش

* قدَّمت عرضاً لموضوع هذا البحث في المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق في شهر كانون الثاني (يناير) عام ٢٠٠١، وفي المعهد العالي للُّغات بتونس في أواخر شهر نيسان (إبريل) من العام نفسه, وأفدت من تعليقات جمهور المستمعين وأسئلتهم في هاتَيْن المؤسَّستَيْن. فلجميع من ساهم بالسؤال أو التعليق أو التوضيح جزيل الشكر. وأودّ أيضاً أن أُنوِّه تنويهاً خاصاً بملاحظات سهيل شباط من المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ووضّاح الخطيب من جامعة فرجينيا.

١– انظر «كشف المخبا»، الصفحتان ٧٢ و٧٥.

٢– جاء اسم الكتاب في نهاية الجزء الأوَّل على «كشف المخبا عن تمدن

أوربا». انظر الصفحة ٦٦ وأول الصفحة ٦٧ من «الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا»، الطبعة الثانية، عام ١٢٩٩هـ)١٨٨١م) المطبوعة في مطبعة الجوائب في استنبول.

٣- يظهر من كتابات كلوت بيك نفسه وكتابات غَيْره أنَّ وُجود مُترجمين واسِعي المعرفة للقيام بهذا العمل كان نادراً.

٤- انظر ص ١٢٧، الهامش٤ من كتاب Heyworth- Dunne, An Intro- duction to the History oF Education in Modern Egypt,١٩٦٨. ولم يُحَدِّد هيورث دَن الصفحة التي أورَدَ بها كلوت بيك هذا القول في كتابه.

٥- انظر آرثر آربري في: British Orientalists، ص١٤.

٦- المصدر نفسه، ص١٢.

٧- المصدر نفسه، الصفحتان ١٣- ١٤.

٨- المصدر نفسه، ص١٦، انظر أيضاً المؤلف نفسه، Oriental Essays، ص١٢.

٩- انظر آرثر آربري، The Cambridge School of Arabic، الصفحات ٢٥- ٢٧. ويُناقِض آربري برنارد لويس في ثَبْت تاريخ ميلاد وليم رايت، إذ يذكر آربري (المصدر نفسه، ص٢٥) أنَّ ميلاد رايت كانَ عام ١٨٣٠، في حين يذكر برنارد لويس في كتاب British Contributions to Arabic Studies، ص٢٥، أن مولده كان عام ١٨٤٠. ويجِب أنْ نذكر هنا أنَّ وليم رايت شَغَل الكرسي الأول للدراسات العربية، الذي أسَّسه توماس آدمز عام ١٦٣٢ بجامعة كِمبردج. انظر آربري، Oriental Essays، ص٢٣٦. انظر أيضاً نجيب العقيقي: «المستشرقون»، ج٢، ص٦٢.

١٠- انظر آربري: British Orientalists، ص٢٥.

١١– انظر: ص ١٤٨من كتاب .١٩٥٥ Fück,Die Arabischen Studien, انظر أيضاً ص ٦٧ في الهامش، وص٨٥ من كتاب ١٩٨٨ Reig, Homo Oritentaliste

١٢– انظر ص ١٤٢من كتاب Fück، المصدر السابق.

١٣– انظر إدوارد سعيد Orientalism: Edward Said، الصفحات ١٢٣– ١٢٩.

١٤– انظر Homo Orientaliste, Reig ، الصفحات ١٠٥– ١١٠.

١٥– الشدياق، «الساق على الساق»، ص ٩١.

١٦– يذكر طنوس الشدياق في «أخبار الأعيان في جبل لبنان»، ج١، ص١٢٠، أنَّ فارس الشدياق أرسِل إلى مصر عام ١٨٢٥ لتعليم المرسلين الأمريكيين اللغة العربية. انظر أيضاً: بولس مسعد: فارس الشدياق (١٩٣٤، ص١٧).

١٧– (حيث قرَأَ النحوَ والصَّرْفَ والمنطِقَ والفقه وعلم الكلام). وذكر بولس مسعد، (المصدر السابق، ص٢٣) الشيوخ الذين دَرَسَ عليهم، ومنهم شهاب الدين الخفاجي، ونصر الله الطرابلسي الحلبي. للمزيد انظر الشدياق، «الساق على الساق»، (١٨٥٥)، الصفحات ٣٥٩– ٣٦١، وطنوس الشدياق، المصدر السابق، ص١٢٠.

١٨– انظر رسالة الدكتوراه لِ Mohammed Bakir Alwan, Ahmad Faris ash-shidyaq and the west ١٩٧٠، (ص٤٠، هامش ١٢٧).

١٩– الشدياق، «الواسطة في معرفة أحوال مالطة»، ص٢٥.

٢٠– انظر آربري: The Cambridge School of Arabic (الصفحتان ٢٢– ٢٣).

٢١– الشدياق،«كشف المخبا»، ص ١٢٢.

٢٢– الشدياق، المصدر نفسه، الصفحات ١٢٠– ١٢٢، ١٢٥، ١٩٧– ١٩٨، ومواضع أخرى.

٢٣– الشدياق، المصدر نفسه، الصفحتان ١٩٧ و١٩٩. ويُعرِّفنا آربري بأن الدكتور جون نيكلسون رجل من عَلِيَّة القوْم، وأنه اقتفى خُطَى أبيه مارك نيكلسون، فالتحق بكليّة كوينز بجامعة أكسفورد واشتهر في مجال العلوم التوراتيّة، وتعلَّم العربية أيضاً، وجَمَعَ قَدْراً لابأْسَ به من المخطوطات الإسلامية. ونَشَر عام ١٨٤٠ كتاباً بعنوان «تأسيس الأسرة الفاطمية في إفريقيا» An Account of the Establisment of the Fatemite Dynasty in Africa. وجون نيكلسون هو جَدُّ المستَشرِق المشهور رينولد آلِن نيكلسون Reynold Alleyne Nicholson، الذي تخصَّصَ بعلوم العربية والفارسية والعلوم الإسلامية وبخاصَّة الصوفية. وكتابه «تاريخ أدب العرب» Literary History of the Arabs غَنِيٌّ عن التعريف في اللغة الإنجليزية لطلاب الأدب العربي. للمزيد انظر آربري: Oriental Essays، الفصل السادس، ولاسيما الصفحتان ١٩٧– ١٩٨.

٢٤– انظر آربري، The Cambridge School of Arabic، ص٢٥.

٢٥– الشدياق، «كشف المخبا»، ص١٩٨.

٢٦– الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢١. أما زَعْم فولتير عن إقامة (صال) بين العرب مُدَّة خمسة وعشرين عاماً، فانظر فولتير Philosophical Dictionary، الجزء الأوَّل، ص٦٨ (مادة القرآن– القسم الأول من هذه المادّة). وليس من الغريب أنْ يكون الشدياق قد عَرَف مثل هذه المعلومة عن زَعْم فولتير هذا من قراءاته أو من أحاديثه مع المستشرقين الذين كان يختلِط بهم في أثناء إقامته في بريطانيا وفرنسا، ولاسيما أنهم كانوا على الأغلَب يتطرّقون إلى الحديث عن «القرآن» وترجماته بوجه خاصٍ والإسلام بوجه عامٍّ. ويذكر برنارد لويس (ص١٧، المصدر السابق) أنَّ ترجمة (صال) هي الترجمة الأولى الكاملة لـ «القرآن» في أي

لغةٍ أوربية، وأنَّ الترجماتِ إلى اللغات الأوربية الأخرى كالفرنسية والألمانية والبولندية اعتمدَت ترجمة (صال) اعتماداً كامِلاً.

٢٧– انظر الصفحات XI- XV في: R.A. Davenport, "A sketch of the Life of George Sale" The Koran.

٢٨– إدوارد وليم لين Edward William Lane (١٨٠١– ١٨٧٦) واضِع القاموس الشَّهير «مَدّ القاموس» An Arabic- English Lexicon، الذي نُشِر في لندن بين ١٨٦٣ و١٨٩٣، والذي مازال يحظى بسُمعَةٍ طيّبةٍ، ولاسيما في أوْساط المستشرقين، حتَّى أيامِنا هذه. وهو كذلك مُؤلِّف الكتاب الشهير «عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم» An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians ، الذي صَدَرَ في لندن عام ١٨٣٦، ومُتَرجِم «ألف ليلة وليلة» (١٨٣٩ – ١٨٤١)، ومُؤلِّف كتاب «وصف مصر» Description of Egypt، الذي أصدرَتْه الجامعة الأمريكية في القاهرة حديثاً عام ٢٠٠٠. وتَتوافَر كتاباتٌ كثيرةٌ عن لين، مِن أهمِّها كتاب ليلى أحمد بعنوان: Edward W. Lane: A Study of His Life and Works and of British Ideas of the Middle East in the Nineteenth Century، وقد نُشِر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٧٨. انظر أيضاً الفصل الثالث (الصفحات ٨٧– ١٢١) من كتاب آربري (Oriental Essays).

٢٩– الشدياق: «كشف المخبا»، ص٢٧١. انظر أيضاً إدوار سعيد: .Ed - ward Said Orientalism , الصفحات ١٢٣– ١٢٩.

٣٠– الشدياق، المصدر نفسه، ص٢٨٣. والصَّحيح هو غوستاف دوغا Gustave Dugat (١٨٢٤– ١٨٩٤). ولعلَّ الرسْمَ الكتابي «دوكان» كما وَرَدَ في «كشف المخبا»، بإثبات حَرْف النون في نهاية الاسم بَدَلاً من حَرْف التاء، كان نتيجة خطأٍ مطبعيّ. ولاشكَّ في أنَّ الشدياق كان مُتأثراً بالرَّسْم الكتابي

الفرنسي لهذا الاسم فأثبت التاء في آخره ، مع أن التاء تكون في هذا المَوْقِع صامتةً، فلا تُلفظ، وإن ثبتت في الرَّسم الكتابي. وكان غوستاف دوغا يُمارِس التعليم في مدرسة اللغات الشرقية École des langues orientales في باريس، وتوفي عام ١٨٩٤. وهو مُؤلِّف كتاب بعنوان «تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر» Histoire des orientalistes de l'Euorpe du XII^e siècle au XIX^e siècle وهذا الكتاب في مُجَلَّدَيْن ويَقتَبِسُ منه الباحثون معلوماتٍ كثيرةً. (انظر ص ١٨٣، هامش ٤٦٦ من كتاب Fück، المصدر السابق). وقد أَلَّف دوغا أيضاً كتاباً بعُنوان «تاريخ الفلاسفة والفقهاء المسلمين من ٦٣٢– ١٢٥٨» (Histoire des philosophes et des théologiens musulmans de ٦٣٢ à ١٢٥٨). طُبِعَ في أمستردام بهولندة عام ١٨٧٨، وأعيدَ نَشرُه عام ١٩٧٣. ويذكُرُ العقيقي في «المستشرقون»، (ج١، ص١٩٣)، عدداً من مُؤَّلفات دوغا، منها تصنيف كتاب قواعد اللغة الفرنسية عام ١٨٥٥ للعرب الراغبين في تعلُّم اللغة الفرنسية. والصحيح أنَّ هذا الكتاب مُؤَلَّفٌ مُشتَرَك بين غوستاف دوغا والشدياق، بعنوان (La Grammaire française à l'usage des Arabes de l'Algérie, de Tunisie, du Maroc, de l'Egypte et de la Syrie). وكان نشْرُه في عام ١٨٥٤ وليس في ١٨٥٥ كما يُورِد العقيقي. (للمزيد انظر مقالة محمد الفاضل البشراوي في قائمة المراجع باللغات الأوروبية).

٣١– الشدياق، المصدر نفسه، ص٢٨٤. ولعلَّ هذا المستشرِق المشهورَ هو أَلِكْس ديغرانج Alix Desgranges، الذي عَمِل في تعليم اللغة الفارسية، وشَغَل كذلك كرسي اللغة التركية. انظر كتاب Reig، المصدر السابق، الصفحتان ٦٦و٦٧، الهامش ٢٦. ويذكر الشدياق في «الساق على

الساق»، ص٦٤٨، أنَّه «تعرّف برئيس تراجم الدولة، وهو الكونت ديكرانج. فأما غيره من التراجمين [كذا] وشيوخ العلم ومدرسي اللغات الشرقية فلم يطأ لهم عتبة...». ويذكر في المصدر نفسه، ص٦٣٩، أنَّه تعرَّف العالم المشهور كاتْرْمير Quatremére، الذي عرفه على كوسان دي برسفال، ولكن هذه العلاقة لم تكن مرضية له، فمعرفته لهم على حدّ قوله: «...كأداة التعريف في قولك اذهب إلى السوق واشترِ اللحم...».

٣٢- لويس شيخو، «الآداب العربية» (١)، ص٢٤.

٣٣- الشدياق، «كشف المخبا»، ص١٢١.

٣٤- الشدياق، المصدر نفسه، ص١٢١.

٣٥- الشدياق، «الجاسوس على القاموس»، الصفحات ٣- ٥ و٤٠٤- ٥١٣.

٣٦- الشدياق، «كشف المخبا»، ص ١٢١.

٣٧- الشدياق، المصدر نفسه، ص١٢١.

٣٨- الشدياق، المصدر نفسه، الصفحات ١٢٥- ١٢٧.

٣٩- الشدياق، المصدر نفسه، ص٧٢.

٤٠- الشدياق، المصدر نفسه، الصفحتان ١٢٤- ١٢٥.

٤١- الشدياق، المصدر نفسه، ص١٢٤.

٤٢- انظر The Cambridge School of Arabic, Arberry، الصفحتان ٢٢- ٢٣

٤٣- الشدياق، المصدر نفسه، ص١٢٢.

٤٤- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

٤٥- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٤.

٤٦- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

٤٧- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٤.

٤٨- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٤.

٤٩- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٤.

٥٠- الشدياق، المصدر نفسه، الصفحتان ١٢٢- ١٢٣.

٥١- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

٥٢- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٥.

٥٣- يُسميّه الشدياق «معرض التحف»، ويُضيف: «وهو المسَمَّى عند الفرنسيس إكْسْبوزِسْيون». انظر الشدياق، المصدر نفسه، الصفحتان ٢٧٥- ٢٧٦.

٥٤- الشدياق، المصدر نفسه، الصفحتان ٢٧٥- ٢٧٦.

٥٥- الشدياق، المصدر نفسه، ص ١٢٤. ولعلَّ الشدياق يُشير هنا إلى «الكتاب المقَدَّس»، «سِفْر أيوب»، الإصْحاح الحادي والأربعين، الآية العشرين: «من مِنْخَرَيْه يَخرُجُ دُخانٌ كأنَّه من قِدْرٍ منفوخٍ أو مِن مِرْجَل...»، وَوَرَدَت هذه الآيةُ في ترجمة الشدياق («الكتب المقدسة»، ج١: ٧٥٦) كالآتي: «...ومن مناخِرِه يَنبَعِث دخان كأنّه من نار مِرْجَل...». وهناك إشارةٌ أخرى إلى «دخان» و«أنف» في «سِفْر أشعياء»، الإصحاح الخامس والستين، الآية الخامسة، حيث وَرَدَ: «هؤلاء دُخانٌ في أنفي نارٌ مُتَّقِدَة كل النَّهار». وجاءت الآيةُ نفسُها في ترجمة الشدياق («الكتب المقدسة»، ج٢، ٩٧١) كالتالي: «إنما هؤلاء دخان في أنفي ونار مُتَّقَدَة النهار كله...». ونُشير إلى أنَّ الترجماتِ العربيةَ الأخرى لِ «الكتاب المقدَّس» رُبَّما أوْرَدَت كلماتٍ تُغايِر قليلاً نصَّ هاتَيْن الآيَتَيْن اللتَيْن اعتمدتُهما في النُسْخَتَيْن المشار إلَيْهما. فمثلاً بَدَلَ «مُتَّقِدَة» قد ترد «مُشتَعِلة»، وترد «يَنْبَعِث» بَدَلاً من «يخرج»، وهكذا دواليك. وينبغي لنا أن نذكر أنَّ كلمةَ «أنْف» في العبرية التوراتية مُرادِفة عُموماً للغَضَب.

٥٦– الشدياق، المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

* * *

المصادر والمراجع العربية

– البستاني (بطرس)، ١٨٦٠، قصة أسعد الشدياق، بيروت: دار الحمراء للطباعة والنشر، (إعادة نشر)، ١٩٩٢.

– بوست (جورج)، ١٩٩٤، فهرس الكتاب المقدس، (ط٨)، القاهرة، دار الثقافة.

– داغر (شربل)، ١٩٩٨، «الشدياق/ الفارياق: العربية والتمدن»، في العربية في لبنان، الصفحات ٨٩– ١٤٨، لبنان، منشورات جامعة البلمند.

– سواعي (محمد)، ١٩٩٩، أزمة المصطلح العربي في القرن التاسع عشر: مقدمة تاريخية عامة، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق وبيروت، دار الغرب الإسلامي.

– الشدياق (أحمد فارس)، ١٢٩٩هـ: الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوروبا، (ط ٢)، استنبول، مطبعة الجوائب.

– الشدياق (أحمد فارس)، ١٨٥٥: الساق على الساق، بيروت، دار مكتبة الحياة، (إعادة نشر)، ١٩٦٦.

– الشدياق (طنوس)، ١٨٥٩: أخبار الأعيان في جبل لبنان، (الجزء الأول)، تحقيق وتقديم فؤاد أفرام البستاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية (١٩)، ١٩٧٠.

– شيخو (لويس)، ١٩٩١: تاريخ الآداب العربية، (ط٣)، بيروت، دار

المشرق.

- الصلح (عماد)، ١٩٨٧، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

- طرازي (فيليب دي)، ١٩١٣، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، دار صادر.

- العقيقي (نجيب)، ١٩٨٠، المستشرقون، ج١و٢، (ط٤)، القاهرة، دار المعارف.

- الكتاب المقدس (أي العهد القديم والعهد الجديد)، ١٨٦٧، كِمبردج (ماساتشوستس)، المطبعة الجامعية. انظر أيضاً: «الكتب المقَدَّسة، وهي كتب العهد العتيق وكتاب العهد الجديد»، (إعادة تصوير بالأوفست)، طرابلس (لبنان)، مكتبة السائح، ١٩٨٣.

- مسعَد (بولس)، ١٩٣٤، فارس الشدياق، القاهرة، مطبعة الإخاء.

- المطوي (محمد الهادي)، ١٩٨٩، أحمد فارس الشدياق، ١٨٠١–١٨٨٧، (قسمان)، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- المقداد (محمود)، ١٩٩٢، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٧.

المصادِر والمراجِع باللغات الأجنَبِيَّة

Agius, Dionisius A.١٩٨٩. "Arabic Under Shidyaq in Malta ١٨٣٣-٤٨." Journal of Maltese Studies, Vol. ١٩/ ٢٠, ٥٢- ٥٧.

Alwan, Mohammed Bakir. ١٩٧٠ Ahmad Faris ash – Shidyaq and the West. Ph.D. Dissertation, Indiana University. Bloomington, Indiana.....

Arberry A [rthur] J. ١٩٤٣?? British Orientalists, London, William Collins.....

Arberry, Arthur J. ١٩٤٨. The Cambridge School of Arabic, ...Cambridge University Press.

Arberry, A[rthur] J. ١٩٦٠. Oriental Essays: Portaits of Seven Scholars. London, George Allen & Unwin Ltd.

Bechraoui, Mohamed- Fadhel, ٢٠٠١. "La Grammaire française. à l' usage des Arabes (١٨٥٤) de Gustave Dugat et Farès Echchidiak." Histoire Épistémologie Langage ٢٣/١ (in Press).

Davenport, R.A. ١٩٠٦. A sketch of the Life of George Sale: The Koran, George Sale (translator), ٨th ed., Philadelphia: J.P. Lippincott Company.

Fück, Johann. ١٩٥٥. Die Arabischen Studien in Europa, Leipzig: Otto Harrassowitz.

Hadidi, Djawad, ١٩٧٤, Voltaire et L' Islam, Paris:..... L ' Association Langues et Civilisations.

Heyworth- Dunne, J. ١٩٦٨, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt. London: Frank Cass & Co. (new impr.).

Hourani, Albert. ١٩٩١. Islam in European Thought: Cambridge University Press.

Lewis, Bernard. ١٩٤١. British Contributions to Arabic Studies: London. Longmans, Green & Co.

Reig, Daniel. ١٩٨٨. Homo orientaliste: la langue arabe en France depuis le XIXe siècle. Paris/ Edition Maisonneuve & Larose.

Said, Edward W. ١٩٧٨. Orientalism. New York: Pantheon Books.

Voltaire, M. De. ١٨٢٤. Philosophical Dictionary, (English Translation), Vol. I, ٢nd ed., London, J.& H. Hunt.